فلسفةالخلاصفيشعرجبرانخليلجبران
قصيدة ((البلادالمحجوبة)) أنموذجًا

د.بنعليقريش
جامعةسيديبلعباس

-1استهلال:الشعر عبُورروحيٌّ بالشاعر،من الشاهد، إلى الغائب ومن الحاضرإلى المستقبلومن الواقع العيانيّ إلى الواقع المنشود ومن العالم الأرضي الرَّتيب إلى العالم العلوي الفسيح،وهو- أيضا- عبور من ضيق الأفق إلى سعة الملكوت، ومن قيد الجسد إلى رحابةالروح، وشوق جامح إلى معانقة الوطن الأصلي و الفردوس المفقود ، وعالم الروح ،والشعر في آخر المطاف ، بحث متواصل عن الخلاص ، الذي به يتطهّر الشّاعر، و به يتسامى عن الكون الماديِّ .

العنوان:الشاعر جبران خليل جبران حاضرحضورا قوياًّ في العنوان، والعنوان شاهدعلى تشكلات الوعي بفكرة الخلاص عند جبران ، و علامة بارزة لميلاد نصٍّ شعريٍّ،انشغل صاحبه بفكرة الخلاص التيّ أصبحت ثابتة من ثوابت جبران ، وجبران كماالشعراء العرب الرومانتيكيون ، لا يمتنع عن ((تمرير)) رغبته في الانشغال بفكرة الخلاص من خلال العناوين التيّ اختارها لقصائده ، و لذلك اختار جبران لقصيدته))البلاد المحجوبة)) صيغة تعبيرية ،تكشف بعض تجليات فكرة الخلاص عند جبران،و تكتنز طاقة ايجابية للعبور إلى حقول دلالية عميقة ، تتضخّم فيها الرغبة في البحثالمتواصل عن الخلاص ((والرباط أساسيٌّ بين الرغبة و اللغة)). إذ أن((الأمر يتعلقبتوصلنا إلى التعبير عن رغبتنا بأحسن الطرق الممكنة و توصلنا إلى لغة رغبتنا((،فالشاعر جبران ، تحدوه رغبة كبيرة في الانتصار على ((البلاد المكشوفة)) ((الواقعأو المدينة)) ب ((البلاد المحجوبة)) (المنشودة).وقد جاء هذا الإيحاء ((مشتّقا دلاليّا ،بمفعول التداعي الجدولي للمعاني في اصطلاح دى سوسور))،و التطلع إلى كل ما هومحجوب، و مطلق،و ابديٌّ جزء من فلسفة الرابطة القلمية الّتي كان جبران رائدا منروادها،وأحد المنظرين الكبارمن منظري فلسفتها ،فقد كان شعراؤها،ويتصدرهم جبران))يبحثون عن المطلق و الأبدية في نفوسهم ، و عن الحقيقة في الطريق الروحيِّ الذيسلكوه))، و قد تشكلت هذه الفلسفة في فكر جبران و في وجدانه من قناعته بأنه))أديب [و شاعر] ذو رؤية واضحة للعالم...قادر على المعرفة الكلية و النهائية و ألايكتفي بفتات مائدة الوجود))، ومن شأن هذه الرغبة في الخلاص والبحث عن عالم((كليليس لبدئه ابتداء، ولا لنهاية نهاية)) أن يجعل الشاعرجبران يحسُّ بالانتماء إلى العلمالمكشوف أو((البلاد المكشوفة))،فتعزّزت في نفسه الرغبة في الارتجال ألاستعجالي من عالم المادة إلى عالم الروح . فهو يعيش ((تجربة يقف وحيدًا في مواجهة العالم.((

إن جبران يرفض أن يكون موجودا في الحياة من غير أن يكون لهذا الوجود معنىً روحي، فهو موجود بالروح، بها ينسجم مع ذاته الرومانتيكية و يصنع عالمه الروحيّالذي ينشده في ((البلاد المحجوبة .((

-3النص: و ذا هو النص:

هو ذا الفجر فقومي ننصرف ~~~ من ديار ما لنا فيها من صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف ~~~ زهره عن كل ورد و شقيق
و جديد القلب أنىَّ يأتلف ~~~ مع قلوب كلُّ ما فيها عتيق

هو ذا الصبح ينادي فاسمعي ~~~ و هلمِّي نقتفي خطواته
قد كفانا من مساء يدّ عي ~~~ أن نور الصبح من آياته

يا بلادًا حجبت منذ الأزل ~~~ كيف نرجوك ومن أي سبيل؟
أيُّ قفر دونها أيُّ جبل ~~~ سورها العالي و منْ منَّا الدليل؟
أسراب أنتِ أم أنت الأمل ~~~ في نفوس تتمنَّى المستحيل ؟
أمنام يتهادى في القلوب ~~~ فإذا ما استيقظت وليّ المنام ؟
أم غيوم طفن في شمس الغروب ~~~ قبل أن يغرقن في بحر الظلام ؟

يا بلاد الفكر يا مهد الألى ~~~ عبدوا الحق و صلُّوا للجمال
ما طلبناك بركب أو على ~~~ متن سفن أو بخيل و رحال
لست في الشّرق ولا الغرب ولا ~~~ في جنوب الأرض أو الشمال
لست في الجو ولا تحت البحار ~~~ لست في السهل ولا الوعرالحرج
أنت في الأرواح أنوار و نار ~~~ أنت في صدري فؤادي يختلج

النص قصيدة من أجود شعر جبران خليل جبران،و أكثره تعبيرا عن فكرة الخلاص،وهي شرون بيتا ،استوقفتنا من هذه الأبيات ،خمسة عشرة بيتا ،سننظر من خلالها إلى فكرة الخلاص عندجبران ، تمرَّد جبران في هذه القصيدة على بعض القيم الأدبية القديمةفإذا هي قصيدة لا تنضبط بضوابط القافية الواحدة ، فتنوعت فيها، بذلك القافية ، وكآنَّ الشاعر جبران خليل جبران تأهّب لتعميق دلالة فكرة الخلاص، موضوع الحديث، من خلال التحرر من القافية الواحدة ذات الرويّ الواحد كما في الشعر العربي، وظل الوزن ثابتة من الثوابت، لان الوزن في المنظومة النقدية للرابطة القلمية التي كان يرأسها جبران((...ضروريٌّ أمّا القافية فليست من ضروريات الشعر لا سيّما إذا كانت كالقافيةالعربية برويّ واحد .يلزمها في كل القصيدة)) . و التمرُّد على القيم الأدبية القديمة جزء أساسي من مفهوم الحرية عند جبران، و ((مفهوم الحرية الجبرانية يقوم على الفعل الذاتي النابع من يقين النفس ، ومن العصيان و التمدّد على المسلمات .....وعلى القيم المادية المظلمة التي توهم الإنسان بأنها تسعده و تنقذه، فإذا هي تسعده و تهلكه)) ، و لهذا آثر جبران أن يعيش مشتاقا إلى المطلق و الروح و اللانهاية على أن يحيا بالقيد والنهاية و السكون، فعبّر على ذلك ، نثرًا ، فقال : ((أريد أن أموت شوقا ولا أحيا مللا)) ، فجاءت لحظة الإبداع التي نظم فيها قصيدة ((البلاد المحجوبة)) ، تُضخِّمُ رغبته في الخلاص من قيد الجسد و من قيد المادة و الفناء و البِلىَ ، و هذا يشير منذ البداية إلى توجُّس الشاعر جبران خليل جبران مما قد يلحق،يبرره الواقع

الموضوعي الذي تراءى له (موبوءا (destruction)(بذات الشاعر من تدميرلأنه كان ينشد عالما مثاليا في منطقة الأحلام، كما الشعراء الرومانسيون، لان جبرانكان يرفض القوانين و القيم التي يحتكم إليها النّاس في المجتمع، و هي قوانين و قيم باتتتهدِّد جوهر شخصيته الرومانسية التي لا تستطيع أن تنسجم مع مجتمع كلّ ما فيه (عتيق) على حدِّ تعبير الشاعر جبران نفسه ، في البيت الثالث من القصيدة ، فجاء طالع القصيدة،يرسم صورة شاعر ، يبحث عن خلاصه ، هروبا من الانفعال المؤلم الذي يشعر بهو ((الانفعال المؤلم نشعر به حين لا نستطيع أن نفعل شيئا أمام موقف مخيف يهدّدنا بالخطر))، و لذلك، فان جبران لا يمتنع عن ذكر أسباب هذا الخوف ،لأنه خوف حقيقي، يهدّد صميم وجوده الروحيّ ، لأنه اكتشف ، بوعي أن التطلع إلى عالم آخر، أسمى،وأنبل و أرحب، هو التخلص من الواقع المكشوف ، و الخلاص ممّا قد يخدش شخصيته، و يُغيِّب وجوده الروحيّ. و الشعر الحديث هو، في آخر المطاف ((التعبير عن الإنسان الوحيد المنعزل الذي يشعر انه مختلف عن أقرانه)) ، و لهذا تأهّب جبران لاكتشاف رحلة البحث عن الخلاص ، عبر هذا الطالع:

هو ذا الفجر فقومي ننصرف ~~~ عن ديارٍ ما لنا فيها صديق

وهذا الإحساس الباطني بالاختلاف و التفرّد عن أبناء المجتمع هو الذي جعل جبران يستعجل هذهالرحلة لأنه أبصرفي الأفق، لحظة الاستغراق في الحلم، مع ((البلاد المحجوبة)) التي يكتشف فيها ما اختزنته مخيلته الرومانتيكية عنها ،((ففي هذه الكشوفيتعانق المرئيُّ مع اللاّمرئي و المعروف مع المجهول و الواقع المحسوس مع الحلم((،و جبران ،يفرّج بالحلم و اللذة الروحيّة عن انفعال مؤلم، يعيشه في مجتمع، يتسم بالرتابةو المادية والفناء، حاول جبران أن يتجاوز هذا المجتمع ، بهذه المواصفات لأنه تيقّن أنّ البحث عن حقيقة العالم تبدأ برحلة الاستكشاف:

ما عسى يرجو نبات يختلف ~~~ زهره عن كل ورد و شقيق

و تيّقن - أيضا - أنّ محاولة الانسجام مع مواصفات ذلك المجتمع ضرب من المحال:

و جديد القلب أنَّى يأتلف ~~~ مع قلوب كل ما فيها عتيق

و لهذا كله ازدادت رغبة جبران بالاستمرار في البحث عن الخلاص الذِّي يؤدي إلى الارتفاع بالذات و بالوجود الروحيِّ للكائن البشريِّ،و يعي حقيقة هذا الوجود،وهذا يعني أنّ ((الخلاص....ارتفاع عن ظاهر الأشياء . ارتفاع عن التناقض و ارتفاع عن كلِّ ما يدخل في الزمان و المكان . ارتفاع عن كلِّ ما له وجهين و لونين ، هو تجاوز الأسودوالأبيض ،العقلي و الجسمي ، المادّي و الروحيّ باتجاه الحقيقة)) و جبران حين يعبّر عن فكرة الخلاص في قصيدة ((البلاد المحجوبة))، فهو يعبر عن شعور عميق بالشوق الجارف إلى عالم مثاليٍّ ، تنتفي فيه المظاهر المادية التي تأسر الإنسان ،وهو يعبر في الوقت نفسه عن شعور بالاكتئاب ،أفرغه في هذين البيتين:

هو ذا الصبح ينادي فاسمعي ~~~ و هلمِّي نقتفي خطواته

قد كفانا من مساء يدّعى ~~~ أن نور الصبح من آيته

و هذا الشعور بالاكتئاب الذي أبداه جبران في البيتين السابقين تعبير عن يأس من حياة المجتمع الذي((يقدِّس)) القيم العتيقة ،و يقنع بمواصفات العالم الموضوعي من حوله،و نتيجة لذلك كله تتكاثف أحلام جبران في وعيه و لا وعيه فترتسم صورة ((البلاد المحجوبة)) التي يحلم بها ، ويسعى للظفر بها من حيث أنها بلاد تتسم بالتجرد والروحانية و التسامي عن العالم الموضوعي ، و بها يبرِّر رحلة الاستكشاف ، لان))البلاد المحجوبة)) بما تتسم به تُناقض الماديّة و الأرضية و الرتابة و القيد و الضيقو الملل.و((الملل هو الاحتضار....والموت)) وهو ((نهاية كل امة و خاتمة كل شعب)) ، و لذلك يمتنع جبران عن ذكر كلِّ ما يجعل ((البلاد المحجوبة)) تتصف بصفات، غير تلك الصفات المجردة التي ينشدها في عالم الأحلام ، و في مخيلته أنّ ((البلاد المحجوبة)) هي السبيل الوحيد إلى الخلاص من اسر العالم الأرضي وعالم المادة و عالم الجسد و عالم الرتابة و لهذا فهو دائم الرحلة و الاستكشاف و التقصيّ وانتظاراللحظة الزمنية الجميلة التي يعانق فيها المطلق و اللاّنهاية، ومع كلِّ ما ينتاب هذه اللحظة الزمنية المنتظرة من شك يتسرّب إلى ذاكرة جبران حول حقيقة هذه ((البلادالمحجوبة)) ، فان الحلم بالوصول إليها و التفريج عن نفسه بلذّة روحانيتها يبقى منتعشا في ذاكرتهيقول جبران:

يا بلادًا حجبت منذ الأزل ~~~ كيف نرجوك ومن أي السبل ؟
أيُّ قفر دونها أيُّ جبل ~~~ سورها العالي ومن منَّا الدليل ؟
أسراب أنتِ أم أنتِ الأمل ~~~ في نفوس تتمنّى المستحيل ؟

إن الاستغراق في لحظة الحلم الموصل إلى الشعور بالانفعال عن دنيا الناس هو نفسه مظهر من مظاهر الخلاص الذي ينشده جبران بحرقة و صبابة على الرُّغم مما يرافق ذلك الشعور من وجع و كرب.
إنّ الوعي بأنّ ((البلاد المحجوبة))التي تنتمي إلى عالم الروح ،كما رسمها جبران في مخّيلته و في وعيه و لا وعيه هو (الوعي)و السبيل إلى الخلاص ((و الوعي الكامل يؤدي إلى الخلاص)) ((والخلاص يؤدي إلى الحرية الكاملة)) ، ف: جبران بهذا الخلاص الذي فهمه في قصيدة ((البلاد المحجوبة))، و فهمهُ، ثقافة و إيمانا ،يريد أن يتخطى به المنظور والجاهز والساكن و الرتيب،من القيم و التقاليد و الأفكار، ويرتفع بوجوده الجسدي إلى الوجود الروحي الذي ما كان جبران يوما ينشغل بغيره، فهو يرغب بهذا الوجود أن يكون سيّد قدره بالخلاص ممّا سوى هذا الوجود،وهو يدرك ، بوعي كامل،أنّ الظفرب : ((البلاد المحجوبة)) ضرب من الخيال و قبضة من الريح ، و لذلك ينتهي تفكير جبران به ، في الأبيات الأخيرة من القصيدة إلى أنَّ ((البلاد المحجوبة)) ليست إلا رمزا لمجموعة من القيم والأفكار و المبادئ ، امن بها جبران ، و أصبح يدعو إليهاوينادي ، هي الحقُّ و الجمال و الحبُّ و غيرها من القيم الجميلة التي ينتصر بها الإنسان على الباطل و القبح و الكراهية ، و بها تنتصر الروح على الجسد، و المطلقو الأبدية على القيّد و الآلى إلى الزوال، و بها – أيضًا – ينتصر الخلود على الفناء ،ولذلك حرص جبران على

إبرار وعيه الكامل لخصوصيته تلك ((البلاد المحجوبة)) التي آمن بروحانيتها كما ارتسمت في فكره و في وجدانه:

يا بلاد الفكر يا مهد الأولى ~~~ عبدوا الحقّ و صلوا الجمال
ما طلبناك بركب أو على ~~~ متن سفن أو خيل و رحال
لست في الشرق ولا في الغرب ولا ~~~ في جنوب الأرض أو نحو الشمال
لست في الجو ولا تحت البحار ~~~ لست في السّهل ولا الوعر الحرج

هذه الصيغة التعبيرية القائمة على بنية التكرار : لست - لست - جاءت دلالة على وعي جبرانبصعوبة فعل الاستمرار في البحث عن ((البلاد المحجوبة)) ، بتلك المواصفات ، و لكنه يؤمن ،في الوقت نفسه ، بأنّه لا مناص من الاستمرار في لفت الانتباه إلى طبيعة تلك البلاد ، لان ضورها في فكره و وجدانه مرتبط بوجوده شاعرا رومانتيكيّا ، يقدّس قيم الحق و الخير و الجمال، فهذه لقيم تحقّق له الوجود الروحيّ الذي افتقده في المجتمع الذي استسلم ناسه إلى القيم المادية ، يرمز إلى عنًى ذي بال في فكر جبران ، ((و المرء لا يغدو حرًّا إلا إذا تعامل مع نفسه ومع الآخرين بالأفكار و المبادئ و انتظم الوجود عبر مفهوم عام يحرّره من سمات البهيمية .....)) ، فالفجر، فجر جبران ينبلج من هذه القيم المادية التي انتشرت انتشارا واسعا في المجتمعات الغربية التي عاش جبران تناقضاتها في الولايات المتحدة الأمريكية في الربع الأول من القرن العشرين ، ولعلَّ ذلك هو الذي جعل ميخائيل نعيمة ، يقول عن جبران في المقدمة التي كتبها سنة 1930 م : ((ولعل أحبّ الناس إلى جبران هو ابن الفطرة و ابن الطبيعة أكان راعي أبقار أم كان حرّاثا.....فهو ما صوّر في كلِّ ما صوَّر راعيًّا قبيحًا،أو فلاحًا خسِّيسا .....)) . لقد حاول جبران في قصيدة ((البلاد المحجوبة)) أن يتجاوز ظاهر العالم إلى حقيقته و ظاهر الأشياء إلى عمقها ، فلم يكن الخلاص المنشود إلّا الروح أو الفطرة التي ((فطر الله الناس عليها))، فقد كان الإنسان سعيدا يوم كان قريبا من الفطرة،ولذلك ظل جبران ، و معه كثير من الشعراء الرومانتيكيين ، يبحثون عن الخلاص في الطبيعة العذراء أو الغاب، مع الراعي و الفلاح ، ((يهتاجه صوت الطيور لأنه متدفق بحرارة و طهور)) – على حدّ تعبير الشاعر أبي القاسم الشابي ، تلميذ جبران، أرادجبران أن يرتفع بروحه عن الحياة المادية التي أرهقت كاهله في الغرب باتجاه الخلاصمن تلك الحياة، فمع الخلاص ينتفي العذاب و الغربة لصالح الفرد و لصالح الفرد الشاعر على وجه الخصوص ، لان الشاعر (لا الشعرور)، له ميل فطريّ إلى عالم الفطرة و الروح ((لأنه يرى بعينه الروحية مالا يراه كل بشر...))، و لهذا، فليس غريبا أن تنغلق قصيدة ((البلاد المحجوبة))، ببيت هو ((الدلالة الحقيقية)). لكل أبيات القصيدة ،و جاء هذا البيت كما أراد له جبران أن يكون ، فكان على النحو الآتي:
أنت [البلاد المحجوبة] انوارونار ~~~ أنت في صدري فؤادي يختلج

فقد عمد جبران ، بوعي و حسٍّ فنيٍّ كبيرين ، أن تنتهي القصيدة بهذا البيت ((الدلالة الحقيقية..)) حتّى يسترعي انتباه القارئ إلى أنّ الهوّة كبيرة ، في الدلالة ، بين ((البلاد المحجوبة)) المنشودة التِّي هي كشف وأنوار و روح و خلود ،و ((البلاد المكشوفة((التي هي حياة مادية و اغتراب و نهاية و عذابات و سكون.

الهوامش

– 1جبران خليل جبران ،المجموعة الكاملة ، د.ت. ص599
– 2جاك لاكان ، الخيالي و الرمزي،منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ، 2006م – 1427ه ، الجزائر العاصمة ، الجزائر .ص11.
– 3المرجع نفسه و الصفحة نفسها.
– 4حسين الواد ، قراءات في مناهج الدراسات الأدبية ، سراش للنشر ،الطبعة التونسية،1985م ،ص86.
– 5إبراهيم محمود منصور،البعد الصوفي عند شعراء المهجر الشمالي ، و ارتباطه بالرومانتيكية ، عالم الفكر ، العدد الثاني ، المجلد السابع و العشرون، أكتوبر – ديسمبر،1998م ص 45.
– 6إيليا الحاوي ،الرومانسية في الشعر الغربي و العربي ،الطبعة الأولى دار الثقافة،بيروت ، لبنان،1980م ص208 .
– 7انس داود ، التجديد في شعر المهجر ص 79.
– 8المرجع نفسه ،ص80.
– 9ميخائيل نعيمة ، الغربال ، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان ، الطبعة الثانية عشرة 1984م ص 85.
– 10إيليا الحاوي ، المرجع السابق ص 201.
– 11المجموعة الكاملة، ص 243.
- 12محمد غنيمي ، الرومانتيكية ،ص 23 .
– 13عبد الرحمن وافي، الوجيز في الأمراض العقلية و النفسية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت. ص 45.
– 14 عز الدين إسماعيل، الفن و الإنسان، دار العلم، الطبعة الأولى، 1974م، بيروت لبنان، ص 117
– 15أدونيس ، مقدمة للشعر العربي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، لبنان ،1979م ص121.
– 16محمد شفيق شيّا ، فلسفة ميخائيل نعيمة، منشورات دجسون الثقافية ،بيروت ،لبنان،الطبعة الأولى ،1979م ص 123.
– 17جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، ص 556.
– 18المصدر نفسه ، و الصفحة نفسها.
– 19محمد شفيق شيّا ،المرجع السابق، ص122.
– 20المرجع نفسه الصفحة نفسها.
– 21إيليا الحاوي ، الرومانسية في الشعر الغربي و العربي ، ص200.
– 22المجموعة الكاملة ،ص13 .
– 23ميخائيل نعيمة ، الغربال ،ص84 .